

٧ - الزندقة في عهد المهدي العباسي للأستاذ محمد خليفة التونسي

—•••••—

وقد أيد زرادشت عبادة النار وشجع على زيادة بناء بيوتها ، وذهب إلى أن يزدان في حرب دأمة مع أهرمن لتنازع السيطرة على الكون ولاسيما الإنسان ، وأن من يعمل صالحاً يساعده يزدان في النصر على أهرمن ، ومن يعمل سوءاً يساعده أهرمن على يزدان ؛ ولذا دعا إلى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان مبالغة في التفاؤل فدعى أن النصر سيكون أخيراً ليزدان على أهرمن فينتصر الخير على الشر ويقضى عليه ، فتبطل المتاعب والفتن ، وعندئذ ينتهي العالم . وبين أن الإنسان بعد موته يحاسب على أعماله فمن رجحت حسناته عبر الصراط بسلام فلقى يزدان وأزله منزلاً طيباً ، وأن من رجحت سيئاته وقع من الصراط في النار وصار مستعبداً لأهرمن ، وأن من استوت حسناته وسيئاته صار إلى الأعراف ، وهذه الآراء تمثل آراء كثير من الطوائف الإسلامية منذ ظهر الإسلام إلى اليوم ، وقد ذهب إلى أن الخير هو الأصل وأن الشر طارئ ، ويؤيد ذلك الشهرستاني في كتابه الملل والنحل فقد قال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص ، فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن ^(١) » .

ويقول ماسيرو في كتابه « تاريخ الشرق » ما خلاصته : « إن يزدان خلق كل شيء بكلمته ، وأخذ ستة أرواح لنفسه من طبقة سامية يمينونه على تدبير شؤون العالم وصونه ، وجعل لهم أرواحاً دونهم يأتمرون بأمرهم وهم منتشرون في العالم ، وحيال ذلك خلق أهرمن ستة أرواح شريرة تعادل أولئك الستة في البطش وجعل لهم جنداً دونهم من الشياطين يطيعونهم في أداء ما يكلفهم به أهرمن من أعمال ، والقوتان دائماً في نضال مستمر حتى ينتصر

يزدان أخيراً على أهرمن وعندئذ تقوم القيامة » .
ومن تماثيله وجوب إكثار النسل لإكثار جند يزدان في نضاله أهرمن ووجوب إصلاح الأرض وزراعتها وتربية الحيوان والجد في العمل ، وتحريم الصوم لأنه مضعف للقوة مشبط على العمل في الحياة ، وتفضيل العمل على العبادة ، فمن يحرق الأرض ويذر فيها الحب ويروها أكرم ممن يتزلف بألف قربان أو يصلي عشرة آلاف صلاة أو يدعو عشرة آلاف دعاء .

وزعم القلقشندي أن زرادشت : « ادعى النبوة وقال بوحدانية الله وأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأنه خلق النور والظلمة ومبدعهما ، وأن الله تعالى هو الذي مزجهما لحكمة رأها في التركيب ، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ، ثم يخلص الخير في عاله وينحط الشر إلى عاله وحينئذ تكون القيامة » . والقلقشندي يخلط صواباً بخطأ فيما زعم ، وأواخر زعمه تنقض أوائله ، ولا يصعب تمييز الخطأ من الصواب في زعمه هذا إذا عورض بما قدمنا في بيان مذهب زرادشت وسيرته ، فزرادشت — وإن كان يعتقد بأن أصل الكون واحد هو النور — اضطر إلى القول في تفسير الظواهر الكونية والحياة الإنسانية بقوة أخرى ضد النور هي الظلمة ونسب إليها الشر الذي هو ضد الخير ، فهو موحد في أصل الكون ، ولكنه ثنائي في تفسير ما يجري فيه ، ويزدان عنده ليس في تدبير الكون وخلقها واحداً لا شريك له ولا ضد ولا ند ، بل له شريك وضد وند هو أهرمن ، فهو يقول كالكيومرانية بأصلين . ومما أسنده القلقشندي إلى زرادشت يشبه أن يكون محاولة للتوفيق بين القول بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام ، والقول بأصلين كما جاءت بها المذاهب الفارسية . وتشبه هذه المحاولة كثيراً رأي أبي العتاهية معاصر المهدي العباسي ومادحه وصاحب جاريته عتبة التي اتهم بالزندقة من أجلها حيناً ، ولأسباب غيرها أحياناً أخرى ^(٢) فقد كان يدين بالتوحيد لله ويرى أن للكون طبيعتين ^(٣) على ما سنفضله في موضعه من هذا البحث إن شاء الله ، ففي مزاعم القلقشندي هنا ظلال المذهب أبي العتاهية ، ومرجع الخطأ في هذا

(١) أغاني دار الكتب ج ٤ ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥ وانظر ترجمة أبي العتاهية في هذا المصدر

ص ١ - ١١٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٦ ص ٢٥٠ - ٢٦١ (مطبعة السادة سنة ١٩٣١)

(١) فارق بين ما ذكره الشهرستاني هنا وما ذهب إليه المكاتب الفرنسي جان جاك روسو من أن الناس كانوا سعداء قبل نشوء الحضارة فلما نشأت ظهر النقاء بين الناس ، وما رتبته على ذلك من وجوب الرجوع إلى الطبيعة في كل شيء لاستعادة المادة المفقودة .

الله وسلامه عليهم اجمعين ، أو حين نفهمها وتتصورها كما ادعاها
التنبيئون كسليمة وسجاح والأسود المنسي ، فهذه نظرة في أسامها
يهودية ، لم تصل إلى فارس إلا في القرن الثالث الميلادي على
عهد ماني كما سنذكره مع سببه عند الكلام فيه ، وأما آخر يؤيد
ذلك هو أن هذا المذهب المنسوب إلى زرادشت ليس له من فضل
فيه يتفرد به إلا التنقيح والبيان إذا بالنفا في إسناد الفضل إليه
فإنه قد قام بجولة في أنحاء البلاد الفارسية للاستطلاع ومشاورة
حكاه الفرس لإصلاح العقائد التي كانت قبله مملوءة بالخرافات
وتطهيرها من الشوائب^(١) ، ولا يتفق الادعاء بالنبوة التي تقضى
بزول وحى من السماء طم القول في كل شيء مع هذه الرحلة
والمشاورات الواسعة ، ومما يؤيد ذلك أيضا أن كيتاسف الملك
الذي اعتنق الزرادشتية ، منع من تعليمها العامة^(٢) حيث منع
تعليمهم كتاب زرادشت ، فالزرادشتية كما اصطفاها زرادشت
كانت محتوية على تعاليم وآراء لا قبل للعامة بفهمها واستساغتها
فهي بذلك مذهب خاص وضع كثير منه للخاصة ، وذلك لا يتفق
وآثار النبوة التي يقصد بها الناس عامتهم وخاصتهم ، وبذلك
يكون كيتاسف قد سبق كثيرا من الفلاسفة الذين أوجبوا
قصر بعض المعارف على الخاصة دون العامة لأن العامة لا تطيقها
ولا تنفيذ منها وقد تتأذى وتؤذى بها : من هؤلاء الفلاسفة
سقراط الذي أنكر الكتاب لأنه مفتوح لكل من يقع في يده
وآر التطليم بالاختصاص ، ومنهم الفارابي الذي حرم تعليم العلم
الرفيع على السفلة ، ومنهم الغزالي الذي نادى بأن من المعارف
« المضمون به على غير أهله » وألف كتابه « إلهام العوام عن علم
الكلام » لأن الناس كما قال في كتابه هذا ، وكما يعرف المارقون
بمقول الناس قد خلقوا أشتاتا متفاوتين في الدارك ، فهم كالمادن
تختلف صورة ولونا وخاصة ونفاسة ، وكذلك القلوب معادن
فبعضها لمعدن النبوة ، وبعضها للولاية ، وبعضها للشهوة البهيمية
والأخلاق الشيطانية ، وكل ما قدمنا ينفي ادعاء زرادشت النبوة
وإن كان لا ينفي ادعاء أتباعه النبوة له ، والمرء غير مسئول إلا عما
يقول ويفعل لا على ما يتقوله عليه الناس ويسندون إليه من أعمال

(١) دائرة المعارف للبستان : مادة زرادشتي Zoroastre Zoroaster

المجلد ٩ - ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) ابن خلدون في العبر : ج ٣ القسم الأول - ١٦٦ وابن الأثير

في الكامل ج ١ - ١٠١ .

وغيره عند الفلقشندي وأمثاله ممن لم يفهموا هذه الأقوال على أنها
وموز - إنما هو الوقوف عند ظواهرها دون التأدي إلى البواطن
السترة وراءها ، والجهل بالدوافع التي جمعت أصحابها يترعون
إليها من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وقياسها على غيرها من
المذاهب الدينية دون مراعاة الفوارق كما أشرنا إلى ذلك قبل .

أما اتهام الفلقشندي وابن الأثير^(١) زرادشت بادعاء النبوة
فأرى أنه غير صحيح ، فإن خلدون يقول فيه إن المجوس يزعمون
نبوته ولم يقل إنه ادعى النبوة ، وهناك أبو الريحان البيروني ، وهو
أولى أن تسمع شهادته في هذا الموضوع ، لأنه أقدم من ابن الأثير
والفلقشندي^(٢) وقد كان فارسياً عارفاً بالثقافة الفارسية واللغة
الفارسية ومؤلفاً بها واطلع بنفسه على بقايا الطوائف التي تدين
بالزرادشتية وغيرها في عهده واتصل بهم ، وهو أكثر استقصاء
وإحاطة بهذا الموضوع من سائر المؤرخين الذين خاضوا فيه وليس
لهم ثقافته ولا استقصاؤه ولا عبقرته ولا علمه الواسع بأخبار الأمم
الشرقية في عصره وقبلة واطلاعه على حوادثها وأساطيرها
وأخلاقها لسياحته فيها ومعرفة بلسانها واتصاله بها ووقوفه على
كتبا وآثارها^(٣) . فلقد عقد هذا العالم الكبير في كتابه
« الآثار الباقية » فصلاً عنوانه « القول على تواريخ السنينيين
وأهمهم المخدوعين عليهم لعنة رب العالمين^(٤) » وذكر فيه كثيراً
منهم سواء من كانوا قبل زرادشت مثل بوذاسف الذي ظهر بأرض
الهند ومن كانوا بعده مثل ماني ومسيلمة ولم يمد فيهم زرادشت ،
وكل ما ذكره في هذا الفصل أن الملوك البيشداذية وبعض الملوك
الكيمانية ممن كان يستوطن بلخ كانوا يمظمون النيرين والكواكب
وكليات العناصر ويقدمونها إلى وقت ظهور زرادشت^(٥) .

فزرادشت لم يدع النبوة كما نفهمها ، وما كان الفرس ليفهموها
ولا ليتصوروها كما نفهمها وتتصورها نحن حين نسندها إلى الأنبياء
الحقيقيين كوسى وسواه من أنبياء بني إسرائيل وكحمد صلاة

(١) ابن الأثير ج ١ - ١٠ .

(٢) البيروني (من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ إلى رجب سنة ٤١٨ هـ)

وإبن الأثير (من سنة ٥٥٥ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ) والفلقشندي عاش في
أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع .

(٣) انظر ما كتبه الأستاذ بروكمان C. Brockelmann وتيدمان

E. Wiedemann عن البيروني في دائرة المعارف الإسلامية وتلحق الأستاذ

محمد بك محمود عليهما في الترجمة العربية ولا سيما ما نقله عن دائرة

المعارف الفرنسية الكبرى .

(٤) و (٥) الآثار الباقية - ٢٠٤ .

على تخليص الفرس من عبودية الميديين ، ثم مد حدود الدولة الفارسية الناشئة إلى خليج السفور ، وهدم الدولة الليدية في آسيا الصغرى .

كان زرادشت نهضته العقلية ، بشيرا وممهدا لهذه النهضة السياسية ، فقد استنطاع -- وهو يتفح تماثيلهم القديمة -- أن يحدد لهم طريق النجاح في الحياة ويدفعهم إلى حبها والكفاح فيها ، ويركز آمالهم ومطالبهم منها ، وربما كان ذلك أيضا سببا من أسباب إقبال الملك كيستاسف المتطلع إلى المجد والسيطرة على الزرادشتية .

ولا ريب أن من أسباب نجاحه أنه عرف في تجوله خلال البقاع الفارسية ومراجعة أعلام الفكر فيها نفسية قومه والحالة التي كانوا عليها ، والغاية التي يتوقون إليها ، كما كان لاقتسابه إلى أصل ارتقراطي أزر كبير في أتران آرائه وذلك مما يسهل له حمل كيستاسف على مذهبه ، ولا ريب أن مما ساعده على ذلك فهم كيستاسف حالة شعبه وما يتوق إليه وما يطبق وما لا يطبق من مذهبه ، وكل أولئك مما ماز الزرادشتيين من غيرها من المذاهب التي بعدها على ما سنوضحه ، فأناهما من الذبوع والنبات وإقبال الخاصة والعامة عليها ما لم يتل غيرها .

(ينج) محمد خليفة التونسي

لم يأتها سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ، ونحن نعلم أن العظمة في كل زمان ومكان مبتلاة من هذه الناحية بأصدقائها ابتلاها بأعدائها والعامية لا العظمة هي المسئولة عن كل ذلك .

وقد كان مما دعا إليه زرادشت إبطال عبادة الأصنام ووجوب التوجه للشمس أو النار عند الصلاة ، وعدم تدنس العناصر الأربعة : النار والهواء والتراب والماء ، والشفقة على الحيوان ، والترام الفضائل في العاملة ، والإمتناع ما أمكن عن أكل اللحم .

نجح زرادشت في إقناع الملك كيستاسف بالدخول في مذهبه وكان لذلك أثره من دخول الناس فيه وإيمان الشعب به ، ولا سيما أنه لم يكشف لهم منه إلا ما تطبق عقولهم ، وبذلك صارت الزرادشتية المذهب الرسمي في البلاط الملكي والمذهب الذي ارتضته العامة طوعا وكرها . ومن أسباب نجاح الزرادشتية أنها ولا سيما ما كشف منها للامة لم تبعث كثيرا عما كان عليه الفرس قبله ، فأعظم جهده ينحصر -- كما قدمنا -- في التنقيح والتبيين لما كان قبله ، ومكانه في ذلك لا يزيد في رأينا كثيرا عن مكان الفيلسوف الهندي الكبير رابندرانات تاجور في الفلسفة الهندية البرهمية ، حين نقحها وعبر عنها كما ارتضاها عقله . وما كتاب زرادشت الذي سنتحدث به بعد ، إلا كمثل كتاب تاجور «السدهانا» ودواوينه التي نظمها وعبر فيها عن آرائه وإحساساته تجاه الكون الذي يحبه وبعد نفسه جزءا منه ، فلا نبوة ولا تهجم

على المشاكل الغيبية عند زرادشت ولا تاجور ، بل فلسفة وفن مردهما الشغف بالكون . والخطأ كل الخطأ أن نتظر من البراهمة العوام أن يجدوننا حديثا صحيحا بفلسفة البراهمة كما فهمها تاجور ، وكذلك الخطأ في انتظارنا أن نسمع حديث عوام الفرس بفلسفة الفرس القدماء كما ارتضاها زرادشت ومن شاورهم من حكما . فارس ، وكان كيستاسف شديد الرأي حين حرم تعليم العامة كتاب زرادشت . ومن أسباب نجاح المذهب الزرادشتي أنه كان ينزع إلى التفاؤل والإقبال على الحياة ويبشر الماملين فيها بالخير وهو في هذا وغيره بل في شخصيته إجمالا يشبه شخصية تاجور شها قويا . ولا ريب عندنا في أنه بهذا التفاؤل كان بشيرا معبرا تعبيرا صادقا عن الآمال القوية الطامحة التي كانت تثقل قلوب الفرس في ذلك الحين ، وأنه كان ممهدا وصاحب فضل كبير على النهضة السياسية التي انتهت بقيام الملك الفارسي كورش الأكبر

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بإدارة مخازنها بالعباسية
الساعة الثانية عشرة ظهر يوم السبت
الموافق ٣٠ مارس سنة ١٩٤٦ عن توريد
أثاثات خشبية - حديد مشغولة وأبورات
الغاز وأجزائها اللازمة لوزارة لسان
٤٦ / ١٩٤٧ والشروط بمخازن الوزارة
وتمن القائمة ١٥٠ مليون مائة وخمسون مليا
وتطلب على ورقة دمنة من فئة الثلاثين
ملياً لكل قائمة . ٤٩٩٦